الجانب الإنسانى في شعر الصعاليك

إعداد

د/حنين عبدالله الدعجانى

أستاذ الأدب والنقد المساعد كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الملك عبدالعزيز ،المملكة العربية السعودية

المستخلص :

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الجانب الإنساني في شعر طائفة الصعاليك، وبيان مفهوم الصعلكة لغة واصطلاحًا ، والحديث عن البيئة و المَوقِف، وذكر أسباب الصعلكة ، وأنواع الصعاليك ، مع ذكر الجانب الخاص بالحرب والسلاح في شعر الصعاليك، هذا وقد تعرض مفهوم العلكة للتطور خلال العصور المختلفة، ومدى تأثر وتأثير شعر الصعاليك في المجتمع، مع إلقاء الضوء على الفضائل الإنسانية في شعر الصعاليك .

هذا وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج ، جاء من أهمها :

أنّ طائفةَ الصعاليك التي ظهرت في المجتمعاتِ على اختلافِها كانت صاحبةَ رسالةٍ وهدف، ويُعد (التفاوت الفئويّ) هو أبرزُ الأسبابِ الدَّافعةِ إلى التّصعلُك، وهذا هو المحكّ في جُلّ العصور التي أفرزَتْ الصَّعلكة، وقد ضمت جماعة الصعاليك فئات متعددة منها: الخلعاء الذين خلَعَتهم قبائلُهم لكثرة جرائرهم، ومنهم أبناء الحبشيّات السّود ممّن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوا بهم؛ لِعارِ ولادتهم ، ومنهم من احترف الصّعلكةَ احترافًا.

الكلمات المفتاحية : الجانِبُ الإنساني، شِعر الصَّعاليك، التمرد ، التفاوت الفئويّ .

The human side in the poetry of the Tramps

Hanin Abdullah Al-Dajani

Department of Literature and Criticism, College of Arts and Human Sciences, King Abdulaziz University, Kingdom of Saudi Arabia

Email: hndaajani@gmail.com

Abstract :

This research aims to reveal the human side in the poetry of the Tramp sect, explain the concept of Tramps linguistically and terminologically, talk about the environment and the situation, mention the causes of Tramps, and the types of Tramps, while mentioning the aspect of war and weapons in Tramps' poetry. The concept of Tramps has been subject to development over the ages. Different topics, and the impact and impact of tramp poetry on society, while shedding light on the human virtues in tramp poetry.

The study reached many results, the most important of which are :

The sect of vagabonds that appeared in different societies had a message and a goal, and (factional disparity) is the most prominent reason driving vagabondism, and this is the criterion in most of the eras that produced vagabonds. The group of vagabonds included multiple categories, including: the immoral people who were deposed by their tribes due to their many transgressions. Among them are the black Abyssinians Those who were abandoned by their parents and did not join them; Because of the shame of their birth, and some of them were professionally a vagabond.

Keywords: the human side, tramp poetry, rebellion, factional disparity.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ، ثم أما بعد

فإن طائفةَ الصعاليك التي ظهرت في المجتمعاتِ الجاهلية وما بعدها على اختلافِها كانت صاحبةَ رسالةٍ، وأهداف سواء اتفقنا أو اختلفنا على جوازها من عدمه، ولذا فقد آثرت أن تكون دراستي حول الجانب الإنساني في شعر هذه الجماعة مع إطلالة موجزة حول الصعلكة ومفهومها ومعناها والبيئة والتصعلك والحرب والسلاح وما إلى ذلك من جوانب تميز بها شعر الصعاليك، وجاءت الدراسة بعنوان : **(الجانِبُ الإنسانيِّ في شِعر الصَّعاليك) .**

المنهج المتبع في الدراسة :

فقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تسير على المنهج الفني التحليلي والذي يسعى إلى الكشف عن الجانب الإنساني داخل شعر الصعاليك ، مع بيان السمات الفنية للنماذج الشعرية .

خطة البحث :

اقتضت طبيعة هذه الدراسة تقسيمها إلى ستة محاور يسبقها تمهيد خصصته لتعريف الصعلكة في اللغة والاصطلاح ويعقبها خاتمة جاءت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة :

التمهيد :

- مفهوم الصعلكة في اللغة والاصطلاح :

محاور الدراسة :

- المحور الأول : الصَّعلَكَةُ (بيئةٌ و مَوقِف):
- المحور الثاني : صعاليكٌ و مُتَصعلِكون:
- المحور الثالث : الصَّعلكةُ (الحرب والسلاح):
- المحور الرابع : الصَّعلكةُ (مفهومٌ و تطوُّر):
- المحور الخامس : الصَّعلكةُ (تأثيرٌ و تأثُّر):
- المحور السادس : الصَّعلكة (صورةٌ للفضائل الإنسانيَّة):

الخاتمة :

المصادر والمراجع:

التمهيد :

مفهوم الصعلكة في اللغة والاصطلاح :

ورد في التقعيدِ اللغويّ للفظةِ (صُعلوك) مَا يلي:

في لسانِ العَرب: الصّعلوك: الفَقير الذي لا مالَ له، و زاد الأزهري: ولا اعتماد.

و أَورَد الفيروزآبادي في القاموس المحيط: صَعلَكهُ: أفْقَره، و تَصعلَكَ: افتَقَر، و تَصَعلَكت الإبل: طَرَحت أوبارها.

و في المعجم الوسيط: صَعلكَ فلانًا: أفْقَرَهُ.

تَصَعْلَكَ الرّجلُ: افتَقَرَ. والصّعلوك: الفقير ، و صعاليكُ العرب: فُتّاكُها.

ولنا أن نلاحظَ ممّا سبق أنّ المادةَ اللُّغويَّةَ تدورُ حَول الفقرِ أو العُدم، وهو في الحقيقة محورٌ مُهِمّ يدعو إلى التمرّد وبالتَّالي ما سُمِّي بالصَّعلكة.

و في هذا المعرض قيل: " أصلُ الصّعلكةِ الفقر، وقد اتَّجه علماءُ اللُّغة في مُعالَجتِهم المادّة اللغويّة للفظة الصّعلوك إلى بيان الجانب المعيشيّ/ الاقتصادي له بالدرجة الأولى...[1]

وأما الدّلالة الاصطلاحيّة للصُّعلوك فتَعني المتجرّدَ للغاراتِ أو للسَّلبِ و النَّهبِ أو ممن خلعَتهُ قبيلته أو هو مِن ذؤبان العَرب.

[1] جذور (فصليّة تعنى بالتراث وقضاياه) العدد السادس عشر، محرم 1425هـ، مقالة بعنوان: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، جاسم محمد صالح الدليمي.

المحور الأول : الصَّعلَكَةُ (بيئةٌ و مَوقِف):

من المعروفِ أنّ لكلّ عصرٍ ظروفه كما أنّ لكلّ مجتمعٍ تشكيلاته، والمجتمعُ الجاهليُّ في تكوينه يختلفُ تمامًا عن تكوينه بعد ظهورِ الإسلام حيثُ اختلفتِ الرِّسالة مما أدَّى إلى اختلافِ الدَّوافعِ والمحرّكاتِ لدى كلِّ فَرد، وهو مع ذلك في تطوّرٍ مستمرٍّ بينَ التقدُّمِ والتأخُّرِ مرورًا بالعَصر الأمويّ فالعبّاسيّ وما بعد ذلك.

وإنّ طائفةَ الصعاليك التي ظهرت في المجتمعاتِ على اختلافِها كانت صاحبةَ رسالةٍ تكاد تتشابه، محورُها (خروجٌ على المجتمع)، يقول الدّكتور حُسني يوسف: "فقد وجدَ بعضُ الشّعراءِ أنفسَهم في وضعٍ لم يستطيعوا فيه أن يتوافقوا مع أنفسِهم في إطارِ العلاقات الاجتماعيَّة، وفَقَدوا التكيُّفَ مع الجماعة، ووصلَ بهم الحدّ إلى الخروجِ على المجتمعِ والتَّمرُّدِ عليه[1]" ولذلك نجد وَقعْ التمرّد ظاهرًا جليًّا في أشعارِهم حتى أنّ الواحدَ منهم يطلبُ الموتَ أمنيةً إنْ لم يستطِع العيشَ الكريم، يقول عروة بن الوَرد:

دعيني أطوّفُ في البلادِ لعلّني أفيدُ غنًى فيه لذي الحقِّ مَحمَلُ

ألـيسَ عظيمًا أن تلِمّ مَلِمّةٌ وليسَ علينا في الحقوقِ مُعَوَّلُ

فإن نحنُ لم نملِك دفاعًا بحـادثٍ تَلُمُّ به الأيـامُ فالمـوتُ أجملُ

من ذلك نرى أنّ ما يمكن أن يسمّى (التفاوت الفئويّ) هو أبرزُ الأسبابِ الدَّافعةِ إلى التّصعلُك، وهذا هو المحكّ في جُلّ العصور التي أفرزَتْ الصَّعلكة، بيدَ أنّ المجتمع الجاهليّ قد كان إفرازُه في هذه المسألة أكثرَ وضوحًا حيث افتقاد الزَّعامةِ التي تسوسُ المجتمع فتُقيلُ عَثرته وتُقيمُ أموره، هذا بالإضافة إلى أنَّ طبيعةَ الأرضِ لها أشدّ تأثيرٍ على الفَرد، وهو ما يظهرُ جَليًّا عند الصَّعاليك الجاهليّين حيث قسوة الطبيعة والجفاف الذي ينعكِسُ على نفسيّةِ الفَرد، حتى إذا اجتمعت تلك القسوة مع الغربةِ الاجتماعيّة التي يعيشُها الصُّعلوك بسبب فَقرِه أو هجومه على المجتمع تشكّلت تلك النفسيّةُ الخاصّة التي يحمِلُها، فيبدأُ بالتمرّدِ على مجتمعه، ورفعِ رايةِ الثَّورة فالحَرب أوّلاً وأخيرًا.

وفي الحديثِ عن طائفةِ الصَّعاليك ينبغي أن نذكرَ ما قيلَ في تمييزِ مجموعاتِهم، وهو أنّهم ليسوا جميعًا كانوا قد خلعَتْهم قبائلُهم لأفعالِهم، إنما نجد في تصنيفهم ثلاثَ مجموعاتٍ أظنّ أنها ترسم لهم صورةً عامَّة لا على سبيلِ الحَصر وهي على التَّصنيف التالي:

1- طائفة من الخلعاء الذين خلَعَتهم قبائلُهم لكثرة جرائرهم، مثل حاجز الأزدي، وقَيس بن الحدّادية، وأبي الطمحان القَيْني.

2- مجموعة من أبناء الحبشيّات السّود ممّن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوا بهم؛ لِعارِ ولادتهم ، مثل السّلَيك بن السّلكة، وتأبّطَ شَرًّا، والشَّنفرى.

[1] حسني عبدالجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م.ص181.

3- مجموعة لم تكن من الخلعاءِ ولا مِن أبناءِ الإماء الحبشيَّات، إنما نجِدُهُم احترفوا الصّعلكةَ احترافًا، وفي ذلك نجِد أفرادًا احترفوها أو قبائل برُمَّتِها جعلَتْ من الصَّعلكةِ مذهبًا تحترِفُه، ومِن أمثلة الأَفراد: عروة بن الورد، أما القبائل فهي مثل قبيلَتَي هُذَيل و فَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكّة والطائِف[1].

ولكّننا مع بعض التحفّظ نستطيع أن نعدّ الصعلكةَ الحقيقية هي التي كانت على أيدي الفئتين (1) و (2) وذلك لأنّ الصَّعلكة عندهم كانت بفعلِ جريرةٍ أو ولادةٍ عابَتها القبيلةُ وبالتَّالي تلوّنت شخصيّاتهم بذلك المذهب الذي تلاءم مع وضعَهم و سلوكهم مما اضطر القبيلة إلى عدمِ الاعترافِ بهم كجزءٍ منها، غيرَ أنّ الفئةَ التي احترفَت الصَّعلكة والتي يمثّلُها عروة بن الورد كانت تختلف عن سابقَتِها لأنّ العمل الصُّعلوكي الذي احترَفَهُ عروة لم يكُن مفروضًا عليه وإنما أراده هو واختاره كأسلوب حياةٍ يفضّله على غيره، ولذلك أعتقد أنّ كلَّ الفئات تدخلُ في إطارِ مفهومِ الصَّعلكة بناحيةٍ أو بأخرى، غيرَ أنّ الفئتين الأولى والثانية هما فئة (صَعَالِيك) و الثالثة أعتقدُ أنَّه من الأفضلِ أن نُطلِقَ عليها فئة (مُتَصَعْلِكِين).

[1] شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط8، بتصرف ص.375.

المحور الثاني : صعاليكٌ و مُتَصعلِكون:

إنّ الناظرَ في حياةِ الشُّعراء الصّعاليكَ و سيرةِ كلّ واحدٍ منهم يلحَظُ الفرقَ فيها بين مَن كان صعلوكًا لعدمِ قدرته على الاندماج في قبيلته لجريرةٍ أو عَيبِ ولادةٍ لأمٍّ حبشيّة (وهو ما سمّي بعد ذلك بفئة أغربة العرب)، وبَين مَن كان يعيشُ في القبيلةِ فَردًا منها ولكّنه بعد ذلك اختار طريقة الصّعاليك فتَصَعلَكَ برغبته هو لا برغبةٍ كائنةٍ مِن غيره، وهذا يشبه ما نقوله في حياتنا مثلاً مِنْ أنَّ:

هذا الإنسان (فَقِيه) و الآخر (مُتَفقِّه)

أو أنّ هذا الإنسان (مدنيّ) و الآخر (متمدِّن)

و هذا (فيلسوف) والآخر (مُتَفلسِف)، بالتَّالي نجد أنّ اللّفظَ الأوَّل في كلِّ جملةٍ هو ألصَق بالصّفةِ من اللفظ الثاني، فكأنّ الأوّل قد لازَمَ الصفةَ فأصبحتْ جزءًا منه أو سمّي بها، بينما اللفظ الثَّاني يسعى إليها ليقتَرِنَ بها بعدَ ذلك.

وإني أردتُ أنْ أوردَ هذا المثالَ لأضعَ الفَرقَ الدَّقيق بين كِلا اللَّفظَين (صُعلوك) و(مُتصعلِك) لأنَّنا نجانِبُ العَدل في الحكمِ إنْ أَعددْنا عروةَ بن الوردِ واحدًا من الصَّعاليك و نُسلّط عليه الحكم كما نسلّطه على الشَّنفرى أو تأبطَ شرًّا أو السّليك أو أبي خِراش الهذليّ وغَيره.

فمَا سجّلته الكتبُ والمصادرُ عن حياةِ عروةَ تُثبِتُ أنَّه لم يكُن كغَيره من الصَّعاليك فقد وردَ في كثيرٍ من المواضعِ أنَّ الخلفاءَ كانوا يتمنّون أن يصاهِروه أو ينتسِبوا إليه وقد وردَ في الأغَاني عن نسبِه: "عروة بن الورد بن زيد، وقيل: ابن عمرو بن زيدٍ بن عبدالله بن ناشب ابن هريم بن لُدَيم بن عوذ بن غالب بن قُطَيعة بن عبس بن بَغيض بن الرَّيث بن غطَفان بن سعد بن قيس بن عَيلان بن مضر بن نزار، شاعرٌ من شعراء الجاهلية وفارسٌ من فرسانها وصعلوكٌ من صعاليكها المعدودين المقدّمين الأجواد[1]" ولا نكاد نجد مثل هذا النّسب وهذا التَّصريح بشَرفِ نفسِه عند غيره من الصعاليك.

وكذلك ورد[2] أنّ معاوية قال: "لو كان لِعَروة بن الوَرد ولدٌ لأحببتُ أن أتزوَّجَ إليهم" ،

و في رواياتٍ أخرى أنَّ عبدالملك بن مَروان قال: "ما يسرُّني أنَّ أحدًا من العرَب ولَدني ممَّن لم يلدْني إلا عروةَ بن الوَرد لِقوله:

إنّي امـرؤٌ عافي إنائيَ شِركةٌ وأنتَ امرؤٌ عـافي إنائِكَ واحـدُ[3]

أتهزأُ مني أنْ سمِنـتَ وأن تـرى بجـسميَ مَسَّ الحقّ والحقّ جاهِدُ[4]

أفرِّقُ جسمي في جسومٍ كثيـرةٍ وأحـسو قَراحَ الماءِ و الماءُ بـارِدُ"[5]

و لم يقتصر الحديثُ في عروةَ عن شرفِ نسبِه وقبيلته بل إنّه ممدوحٌ في شَخصه كثيرًا حيث وردَ أنّ عبدالملك بن مروان قال: "مَن زعَم أنّ حاتِمًا أسمحَ الناس فقد ظلم عروة بن الورد".

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط4، 1422هـ/2002م، ج3. ص72.
[2] المرجع السابق. بتصرف ص72-74.
[3] عافي إنائي شركة: أي يأتيني من يشركني فيه.
[4] جاهد: يجهد الناس.
[5] أحسو قراح الماء: الذي لا يخالطه لبن ولاغيره، والماء بارد: أي في الشتاء فذلك أشد.

ولذلك لم يكن من الطبَّيعي أن يكونَ واحدًا كعروة ضِمن سلسلةِ الصَّعاليك وفئتهم بنفسِ الصِّفات التي تَسري عليهم فتُسحَب عليه، ولكنَّه مع ذلكَ الوَضع الكريم اختارَ أن تكون الصَّعلكة طريقَهُ ومذهبَهُ على شرفٍ من نفسِه و نسبِه وأهلِه، وقد ورد كذلك[1] أنّ زوجاته كثيرًا ما كنّ يلُمنه على مغامراته في سبيل الصَّعاليك، ولم يكن يصغي لملامتهنّ على أنّه كان من آدَبِ الناس وأجودهم يدًا في معاملته زوجاته وأحماه لهنّ من ضَيم، يدلّ على ذلك ما وردَ عن المرأةِ الكِنانيَّة التي كان قد أسَرها وتزوّجها، ثمّ فاداها أهلُها منه، فلم تفارقْهُ إلا أنْ أثنتْ عليه قائلةً: "يا عروة، واللهِ ما أعلمُ أنّ امرأةً ألقَت سِترها على بَعلٍ خيرٍ منك، وأغضّ طَرفًا، وأقلّ فُحشًا، و أجوَد يدًا، وأحمى لحقيقة".

وقد قيلَ في تلقيبِه بـ(عروة الصعاليك) أنَّه كان يجمع صعاليكَ العربِ ويقومُ بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهِم، ولم يكنْ لهم معاشٌ ومغزًى، وقيل بل لقّب بذلك لأنه قال أبياته المشهورة:

لحى الله صعلوكًا إذا جَنَّ ليلُـهُ مُصـافي المُشاشِ آلِفًا كلَّ مَجزِرِ

يعدُّ الغِنى مِن دهـرِهِ كلَّ لـيلةٍ أصابَ قِراها مِن صديقٍ ميسَّـرِ

وللهِ صُعلـوكٌ صفيحةُ وجهـهِ كضوءِ شِهـابِ القابِسِ المتنـوّرِ

وقد اكتظّ ديوانه بمعانٍ سامية وشِعرٍ رقيقٍ جميلٍ أرى أنّه يختلفُ كثيرًا عن شِعرِ الصَّعاليك في جزالةِ اللَّفظِ و وضوحِ المعنى على صعوبةٍ في شِعر غيره كالشَّنفرى وتأبَّطَ شرًّا وغيرهم.

ومن شِعره الجميلِ الذي يمثّل عاطفةً قويّةً و رغبةً عن الضَّيم و حُبًّا لفضائل النَّفس قوله[2]:

وسائِلـةٍ أينَ الرّحيلُ وسـائـلٍ ومَن يَسألُ الصّعلوكَ أينَ مذاهبُهْ

مـذاهبهُ أن الفِجـاجَ عريضـةٌ إذا ضَـنّ عنهَ بالفـعالِ أقـارِبُهْ[3]

فلا أتركُ الإخوانَ ما عِشتُ للرّدى كـما أنّه لا يتركُ المـاءَ شـارِبُهْ

ولا يُستضامُ الدهرَ جاري ولا أُرى كمن باتَ تسري للصَّديقِ عقـاربُهْ

وإنْ جـارتي ألَوَتْ رِيـاحٌ ببـيتها تغافَلْتُ، حتى يستُرَ البيتَ جانِـبُـهْ

ويظهرُ لنا في الأبياتِ تلك النَّفس التي تأبى الغِنى مع الضَّيم وتفضّل حياة الصَّعلكة على الهوان وسط الأهلِ والأقارب، كما تظهرُ سَماحة النَّفسِ التي لاتطيقُ العَيش مع ضَيمِ الإخوان، وكَذا الخلق النبيل من غضٍّ للبصرِ وعدمِ انتهاكِ الحرمات.

[1] مقدمة ديوانه، دار صادر، بيروت. بتصرف.
[2] ديوانه. ص19.
[3] الفجاج: الواحد فجّ وهو الطريق الواسع بين جبلين.

ومِن أجملِ ما قال[1]:

فِراشي فـراشُ الضّيفِ و البيتُ بيتُه ولم يُـلهِني عنه غـزالٌ مُقَنَّـعُ

أحـدّثهُ إنّ الحديثَ مــنَ القِرى وتَعلمُ نفسي أنّه سـوفَ يَهجعُ

وهو هنا يريد بالغزال المقنّع: المرأة الحسناء، فإنها لا تلهيه عن ضَيفه وقِراه، وإنْ عُدِم القِرى فإنّه يقريه الحديثَ والسَّمَرَ لِينامَ بعد ذلك قريرَ العَين.

من هذه الأبيات التي تضجّ بالفضائل والحِكم وأكثر كانت شخصية عروة بن الورد الذي كان قد ورد عنه أنّه يُكسِبُ المريضَ والضعيفَ و الكبيرَ ويحفِر لهم الأسراب ويكنُف عليهم الكُنُف (الكنيفة : الحظيرة) ثمّ يُكسِبهم ، فما يتركهم إلا متشافيًا و ضعيفًا تؤوب قوّته[2]، وذلك لا ينطبق على كلّ صعلوكٍ غيره، بل إننا نجد أنّ في سيرتهم ما يثبت انفرادهم وانعزالهم ولو كان الواحد منهم محبًّا لمساعدة غيره في بعض الأحيان ولكنّه غير قاصدٍ لذلك كما عند عروة فهذا الشنفرى مع أنه من بني فهم بن عمرو بن قيس عيلان[3] إلا أنّ لقبه (الشنفرى) يدلّ على تلكَ الدماء الحبشيّة تجري في عروقه من ناحية أمّه وقد قيل في ذلك إنّ الشنفرى الذي يعني الغليظ الشفاه كان قد ورث سواده عن أمه ولذلك عُدّ من أغربة العرب، وبالتالي عُدَّ من الأفراد الذين خلعتهم قبائلهم وتبرّأت منهم عشائرهم[4] لعار ولادتهم .

وأما السُّلَيك بن السُّلَكة فيعود نسبه إلى سعد مناة بن تميم[5] ولكنّ أمّه الأمَة السَّوداء كانت سببًا في أخذه السّواد وعُدّ كالشنفرى من أغربة العرب، وعُرف بعد ذلك بفَتكِه وعَدّوه من شياطين الجاهلية وأعداهم –ولذلك يقال في المَثل: أعدى مِن السّليك- وأعلمهم بمسالكِ الأرض.

وأما عمرو بن برّاق فهو من قبيلة همدان القحطانية[6]، ولكنه كان بائِسًا من الصعاليك فقيرًا معدَمًا على كونه صديقًا للشنفرى وتأبّط شرًّا الذي ينتسب إلى فَهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار، واسمه ثابت بن جابر وقيل ثابت بن عمسل وأمُّه يقال لها: أميمة، وله مغامرات كثيرة مع الغول ولعلّ في تأبّطه لها رواية من الروايات الواردة في سبب تلقيبه بهذا اللقب[7] "ومهما يكن من اختلافٍ حول هذا اللّقب، فإنه على غرابته وطرافته يأتلِفُ مع صاحبِه، ويدخلُ معه في عالمِ الأساطير؛ فقد باتَ تأبَّطَ شرًّا مرادِفًا للذّعر و الهَول[8]"، وقد كان فاتكًا شديدًا له الكثير من الغارات مع صديقيه الشنفرى و عمرو بن براق كغاراته على خثعم والأزد وغيرها.

---

[1] ديوانه. ص49.
[2] الأغاني، مرجع سابق. بتصرف ص77.
[3] المرجع السابق. ج21. بتصرف ص185
[4] ديوانه. بتصرف ص25.
[5] ديوانه. بتصرف ص73.
[6] ديوانه. بتصرف ص103.
[7] انظر الروايات في الأغاني، ج21. ص138-139 و ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الأرقم، بيروت، ط1، 1418هـ/1997م.ص212
[8] محمد رضا مروّة ، الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم و أشعارهم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ/1990م. ص116.

وأما قيس بن الحُدادِيّة فقد كان أيضًا فاتكًا صعلوكًا خليعًا خلعته خُزاعة بسوق عكاظ، وأشهدتْ على نفسها بخلعه إياه لكثرة جرائره[1]، وله الكثير من الغارات على خزاعة و هوازن وغيرها.

وأما من الهذليين فنجد أبا خراش أبرز الصعاليك في قبيلة هذيل واسمه خويلد بن مُرّة، و كان من الشعراء المخضرمين فأدرك الإسلام، ومات في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه[2] ولعلّ هذا مما انفرد به أبو خراش عن غيره من الصَّعاليك ولكنّ الروايات كثيرة حول صَعْلَكَتِهِ التي تمثَّلت في كَونه فتًى كثير الغزوِ للعشائر التي يعيش بينها قومه[3].

وكذلك صخر الغيّ واسمه صخر بن عبدالله الخيثمي، أحد بني خيثم بن عمرو بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل، وقد لقّب بصَخر الغيّ لخلاعته و شدّة بأسه، وكثرة شرّه[4].

وأما مالك بن الرّيب فهو من بني عمرو بن تميم، ولكنه كان فاتكًا لِصًّا، و منشؤه في باديةٍ بالبصرة من شعراء الإسلام أوَّل أيامِ بني أمية[5]، وقد كان من قطّاع الطُّرق مع شِظاظ الضّبيّ الذي يُضرب به المَثَل "ألصُّ مِن شِظاظ"[6].

ومن أبرز ما يظهر عند هؤلاء الصعاليك أنّ أغلبهم مات مقتولاً كعروة والشنفرى و تأبط شرًّا والسّليك وابن الحدادية.

وبعد هذا السّرد حول حياة أغلب الصعاليك تتضح المفارقة بين كَون الصعلوك إنسانًا مخلوعًا أو قاطِعًا لطريق أو كثير الغارات على القبائل والجرائم لضَعةٍ وهوانٍ يشعره في نفسه، وبين المتصعلِكِ كعروة والذي كانت صعلكته احترافًا و قرارًا شخصيًّا أراده هو أن يكون صاحبَ جريرةٍ أو عِرقٍ تنفر منه العرب وتعيبه، ولعلّ ما ذكرناه من شواهد وقصص يمثّل المراد والمقصد.

---

[1] الأغاني، مرجع سابق. ج14. بتصرف ص142-143.
[2] المرجع السابق.ج21. بتصرف ص211.
[3] أحمد كمال زكي، شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1389هـ/1969م. بتصرف ص 364.
[4] الأغاني، مرجع سابق. ج22. بتصرف ص 347.
[5] المرجع السابق. بتصرف ص288.
[6] الشعر والشعراء، مرجع سابق.بتصرف ص 247.

المحور الثالث : الصَّعلكةُ (الحرب والسلاح):

ارتسمت شخصيّة العربيّ قديما في صورةٍ تحتّم رسمَ السّلاح معلّقًا على كتفه أو على ظهره هذا إن لم يكن في يده ممسكًا به، وهذه الملازَمة حقيقةٌ واقعة عند كلّ عربيّ قديما سواءً أكان في حالة حَربٍ أم في حالة السِّلم، ولذلك فإنّه من باب أَوْلى أن يكونَ السِّلاحُ ملازِمًا لذلك الصّعلوك الذي يعيشُ كلَّ وقتِه في حَربٍ لا يأمن الشرّ من هنا أو من هناك، وجديرٌ بالذكر أنّ العربيّ يشعر بالاعتزاز بسلاحه إلى درجةٍ كبيرة ويتفنن فيه و بذِكره في شِعره[1]، وقد امتلأت دواوين الصعاليك بذِكر أسلحتهم فمن السّيفِ إلى الرّمح إلى القوسِ والسّهم و النّبل وغير ذلك مما سأورد له أبياتًا منها:

- في السّيف وهو السّلاح الأوّل الذي يحرص العربيّ على حَمله واستعماله يقول الشّنفرى[2]:

وأَبيضُ مِن مــاءِ الحديدِ مهنّدٌ مُجِذٌ لأطرافِ السّواعِدِ مِقطَفُ[3]

ويقول مالك بن الرّيب عن القِرى الذي قدّمه وهو عبارةٌ عن سيفٍ أبيضَ كالعقيقة[4]:

فقِراكَ أبيضُ كالعقيقةِ صارمٌ ذا رونقٍ يغشى الضّريبةَ فاصِلُ

- ويكثر الصّعلوك كذلك من ذكر القَوس بالإضافة إلى السيف ومنها يقول الشنفرى[5]:

و حَمراءُ مِن نبعٍ أبيٍّ ظهيرةٍ ترِنُّ كإرنانِ الشجيّ وتهتِفُ[6]

وكذلك يقول:

وإنّي كفاني فَقدُ مَن ليسَ جازِيًا بحسنى ولا في قربه متعـلّلُ

ثلاثة أصــحابٍ: فؤادٌ مشيّعٌ وأبيضُ إصليتٌ و صَفراءُ عَيطَلُ[7]

ويظهر منها كيف يستغني عن كلّ شيءٍ عدا نفسه وأسلحته التي تعطيه معنى الحياة وتحقّق له الصّحبة التي يريدها.

- وكذلك تظهر السّهام مصاحبةً للأقواس ومِن ذكرها عند عبيد بن أيوب العنبري يصف قوسه بصفرتها و وتَرها و نصال سهامها

---

[1] عبدالحليم حنفي، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م. بتصرف ص.315-256.

[2] ديوانه. ص51.

[3] الأبيض: السّيف، مجذّ: قاطع، و المِقطَف في الأصل: المنجل الذي يقطف به.

[4] في المعجم الوسيط: العقيقة جمعها عقائق: وهي السيوف التي تلمع كالبروق.

[5] ديوانه. ص51.

[6] الحمراء: القوس الشديدة، النّبع: ضرب من الشّجر تتخذ منه الأقواس، ظهيرة: قوية، الشجيّ: الحزين، تهتف: تصيح. تصيح.

[7] المشيّع: المقدام الشجاع، الإصليت: السيف الصقيل المجرد من غمده، الصفراء: القوس، العَيطل: القوية الطويلة العنق.

فيقول[1]:

ألم ترني صاحبتُ صفراء نبعةً لها ربذى لم تفلّل معابله[2]

- ومن ذِكرهم للأسلحة التي يستخدمونها نجد الرّماح سواءً للحرب أو للصيد وغيره، يقول عمرو بن براق[3]:

فلا صُلحَ حتى تُقدَعَ الخيلُ بالقنا وتُضرَبَ بالبِيضِ الخِفافِ الجماجِمُ

ولا أَمنَ حتى تَغشِمَ الحَربُ جَهرةً عبيدةَ يومًا و الحروبُ غواشِمُ[4]

ونستطيع أن نتلمّس حياة الصعلوك المليئة بالحروب من البيت الثاني واضحةً جليَّة.

- الدروع والتروس كذلك من أسلحتهم و ذكروها في أشعارهم وهذا عمرو بن العجلان المعروف بذي الكلب يقول في ترسه وأهميته في صدّ النبال عنه[5]:

تمنـاني وأبيضَ مشرفــيا أشاحَ الصدر أخلص بالصّقال

وأسـمر مجنأ من جِلدِ ثَورٍ أصـمّ مفلّلاً ظبَةَ النّـبال[6]

هذا وقد اكتظّت دواوين الشعراء بذكر مثل هذه الأسلحة وغيرها بشكلٍ واضح، فمن تفاخُرٍ بالسلاح إلى وصفٍ لمواد صنعه، إلى الإشارة لفوائده و استخداماته وغير ذلك مما يضع الصعلوك دون أدنى شكّ في حياة الترحّل وعدم الاستقرار، و في إطار الحرب المستمرة بينه وبين كلّ ما حوله.

ومن الجدير بالذكر في هذا الموضع أنّ أقوى ميزة، و أوضح خاصَّةٍ عند الصَّعاليك والتي عدّها البعض أساسًا من أسلحته هي قدرة الصّعلوك في (العَدو) وهذا سِلاحٌ ذاتيٌّ يعتمد عليه الصعلوك في حياة الصّعلكة، وقد تميّز الصعاليك بذلك خاصّةً الصعاليك الجاهليين كما ذكرت بعض المراجع من مثل تأبط شرًّا و الشنفرى و عمرو بن براق، كما ورد أنّ أكثر القبائل شهرةً بالعدو و كثرة العدّائين قبيلة هذيل، وقد أورد الدكتور عبد الحليم حنفي[7] تعليلاً ذكره السُّكري وهو أنّ قبيلة هذيل كانوا قومًا رجَّال ولم يكونوا أصحاب دواب.

وعلى كلّ حال فإنه مهما كانت علّة ذلك ترى أنّ ظاهرة العدو تعود إلى التكوين الشخصيّ الذي يتيح لصاحبه أن يبرز في ميدان تلك الظاهرة، والذي أشار أبو خراش الهذلي إلى شيءٍ منه في وصف ابنه خراش، وقد علّل سرعته الفائقة وعدم استطاعة مطارديه أن يلحقوا به

---

[1] عبدالحليم حنفي، مرجع سابق. بتصرف ص 227
[2] الربذى: الوتر، المعابل: النصال العريضة الطويلة.
[3] ديوانه. ص109
[4] الغشم: أشدّ الظلم، عبيدة: قبيلة من قبائل اليمن.
[5] عبدالحليم حنفي، مرجع سابق. بتصرف ص231
[6] مجنأ: أحدب، أصم: ليس فيه خلل ، مفلل: يكسر حد النبال.
[7] مرجع سابق. بتصرف ص232- 240

حيث قال عن ابنه هذا حين نجا بعَدوِه مِن مطارديه:

كأنهـم يشّــبثون بطائرٍ خفيفِ المشاش عظمه غير ذي نحضِ[1]

والعامل الثاني هو الوراثة وقد كان بعض الصعاليك من إخوةٍ عشرة أو أكثر كلّهم عدّاء، وأما العامل الثالث فهو البيئة و أسلوب المعيشة حيث يضطر كل مجتمع إلى صوغ حياته على ضوء ما تتيحه له بيئته ومعيشته وما تسمحان به.

ولعلّ تلك القدرة على العدو هي التي سوّغت للصعلوك الغزو بمفرده، والعيش بمفرده، والترصّد لفريسته، وقدرته على الصيد؛ وذلك لأنّ ثقته بتلك القدرة شكّلت له تصوّرًا لقوّةٍ يمتلكها ذاتيّة ليس لأحدٍ فضلٌ عليه فيها يلوذ بنفسه فيحميها من أيّ شيءٍ قد يضرّها ، وفي المقابل يغنيها عن أيّ أحدٍ قد يحتاجه.

[1] المشاش: العظم اللين وهو من عظام الذبائح ما يمكن مضغه من رؤوس العظام، ومعناه مرونة المفاصل في العدو، والنحض: اللحم ،يعني أنه خفيف اللحم.

المحور الرابع : الصَّعلكةُ (مفهومٌ و تطوُّر):

تطّور مفهوم الصّعلكة عبر العصور ولكنّ محوره الأساس و ركيزته الأولى كانت تتمثّل في رسالة التمرّد وعدم الرّضا.

وقد كان الطابع العام لنصوص الفئات المتقدّمة من الصَّعاليك يسيطرُ عليها جانبُ التمرُّدِ الذي يتّخذُ من الشَّجاعةِ سلاحًا له، فكان الصُّعلوك يفتخر بنفسِه وغاراتِه ويذكرها في شِعره غير آبهٍ بما قد يحصل من وراءِ ذلك أحياة أم موت! وبالتالي كانت الفضائل المستخرجة من شعرهم تتمثّل بما افتخر به العرب القدماء من كرمٍ و إيثارٍ و سعةٍ في البذل بما يستطيعه سواءً أكان المالُ له أم مغتصبه، فما يهمّه هو أن يشيد بما فعل من محامد يعدّها في نفسه من أفضلِ فضائله، ولا نكاد نلمح أيّ جانبٍ يشير إلى ضعفٍ في شخصيّاتهم أو شكوى من سوء حالةٍ إلا ويردفوه بأنّ العُدمَ على عِزٍّ خيرٌ من الغنى على هوان، وأما ما ورد في شِعرهم من أحاديث فرارهم فلم يكونوا يعدّونه عيبًا يخجلون من ذكره، بل بالعكس هم يرونه قدرةً ونجاحًا منهم، يقول الدكتور يوسف خليف: " كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم وانتصارهم فيها، وفَوزهم على أعدائهم، يتحدثون أيضًا عن فرارهم وهربهم، دون أن يجدوا في هذه الأحاديث غضاضة، أو أمرًا يدعو إلى الخجل والمداراة، وفيمَ الخجلُ مادام الفرارُ أمرًا طبيعيًّا مِن قومٍ عدّائين، أو بعبارةٍ أخرى سلاحًا من أسلحتهم يضمن لهم النجاة ليعيدوا الكرّة من جديد ليحققوا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية؟[1]"

ثمّ يتطوّر مفهوم الصعلكة فتصبح احترافًا له أسسه و معاييره كما عند عروة بن الورد الذي حوّل معنى الصعلكة إلى صورةٍ من صوَر التعاون الاجتماعي فالغنيّ يعطي الفقير إنْ لم يعطه رغبةً فاغتصابًا و ردًّا للحقوق إلى مَن يستحقّها، فكأنه بذلك أراد أن يعيد بصعلكته توزيع الحقوق بما يشبه الرغبة في تكوين مجتمعٍ يعدل و يعين غنيُّه فقيرَه، كما أنّ الصعلوك الذي كان في الماضي يقطع الطريق و يسرق أصبح شَرطًا من شروطِ كَونه صعلوكًا أن يكون فارسًا، وبالتالي بدأت تتشكّل الصعلكة في صورة مثاليّةٍ لا ينالها أي أحدٍ إلا بانطباق شروطها ومعاييرها عليه، فكان مِن باب أوْلى في هذه المرحلة من تطوّر مفهوم الصّعلكة أن يظهر الجانب الإنسانيّ بشكلٍ أوضح كما أسلفنا في الشواهد مِن شعر عروة ابن الورد.

ثم نجد أنَّ في العصر الأمويّ تبعًا لتبديد ثروة بيت المال في غير محلِّها فسدت الأحوالُ الاقتصاديّة والسياسيّة، وكان من نهج الأمويين أنهم لم يفرضوا العطاء للقبائل التي عادَتهم فنشأت فئة الصعاليك التي تندّد بالخلفاء الأمويين ساخطةً عليهم، ومنهم مالك بن الرّيب التميمي، و شِظاظ مولى تميم، و أبو جِردبة التميمي، وأبو النشناش التميمي، و جحدر بن مالك الحنفي و عبدالله بن الحجاج و يَعلى الأحول اليشكري و غيرهم، وكلهم اتّخذ الصعلكة طريقًا له، كما توحَّدوا في الفقر والثورة، ونزلوا بالصحراء خارجين على قبائلهم، وثائرين على السلطان، يُغِيرُونَ معتقدين أنَّهم بذلك يحقِّقُون كرامةً لأنفسِهم.

وأمَّا في العصر العباسِيّ فقد اختلف مفهوم الصعلكة فيها على أساس انحلال الرابطة القبليّة أولاً بسبب دخول العناصر الأجنبيَّة، حتى أنّ الجاحظ وصف دولة بني العباس بأنها "عجميّة خراسانيَّة" مقابل أن دولة بني أمية "عربيّة أعرابيَّة"، بالتالي اختفت فئة الصعاليك الخلعاء في هذا العصر وكذلك فئة الصعاليك السّود، فنشأ صعاليك هذا العصر في بيئةٍ متحضّرة وانقسموا إلى فئاتٍ ثلاث: طبقة الفقراء

[1] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مكتبة غريب. ص205.

المعدمين البائسين، وطبقة اللصوص الثائرين، و طبقة من العيّارين و الفتيان و الطُّفَيليّين، وأما طريقة تعبيرهم فاختلفت عمن سبقهم في أنهم اتخذوا من أسلوبهم منهجَ النقد اللاذع و التشهير و التعريض والهجاء المقذع؛ لإكراه الوزاء و العمّال والتجّار الميسورين على إجراء الصّلات القليلة عليهم؛ ليكفلوا الحياة لأنفسهم وأولادهم، ومن هؤلاء أبو الشَّمَقْمَق و أبو فرعون السَّاسي و الحمدوني، وأما اللصوص فلم يكونوا كمن سبقهم في طريقتهم بل كانوا لا يغيرون ولا يستخدمون السِّلاح ولكنّهم يسرقون بالحيلة والمكر بتمويهِ من يسرقون منه ولهم عصابات، وأما العيّارون فهم فئة من الصعاليك الفقراء كان أكثرهم من الأحباش والأفارقة الذين كانوا يمارسون نوعًا من الأعمال الحقيرة كالخدمة في القصور والمزارع غير أنهم لم يُتَبرَّأ منهم لسوادهم كما كان في العصر الجاهلي، وإنما لأنهم كانوا يتمرّدون ويثورون مقابل الحياة الضيّقة التي يعيشونها، مما أدى بهم إلى اكتساب أقواتهم بالتلصّص فيُحبَسون حتى امتلأت منهم السّجون، وكذلك فئة الشطّار الذين كانوا من فئات الصعاليك الفقراء اللصوص ومنهم رجل اسمه إسحاق بن خلف الحنفي، وأما الفئة الأخيرة فهي الطفيليّون الذين كانوا يتخذون طريقةً مختلفة في إشباع حاجاتهم وممارسة صعلكتهم المضحكة عبر الدخول إلى الأعراس والولائم والأكل منها وإشباع حاجاتهم عبر إقحام أنفسهم فيما يستمتع غيرهم به[1].

[1] حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، ط4، 1997م. بتصرف ص 55- 69 و 145-163

المحور الخامس : الصَّعلكةُ (تأثيرٌ و تأثُّر):

في بيئة الصّعاليك ونفسيّتهم المتمرّدة سراديب يصعب فهمها دون طَرحِ بعضٍ من نصوصهم التي قد يتّضح معها ذلك التأثّر والتأثير الذي أَوجدته البيئة في شخصيّاتهم وشخصيّة نصوصهم، وأقصِدُ هنا بالبيئة كل ما يحيط بهم لا على الصّعيد الجغرافي فحَسب، بل من ناحيةٍ اجتماعيّة و عُرفيّة وما إلى ذلك، ونستطيع في سبيل الوصول إلى الإيضاح أن نرسم دوائر تبيّن ذلك الأثر وذلك التأثير.

الدائرة الأولى:

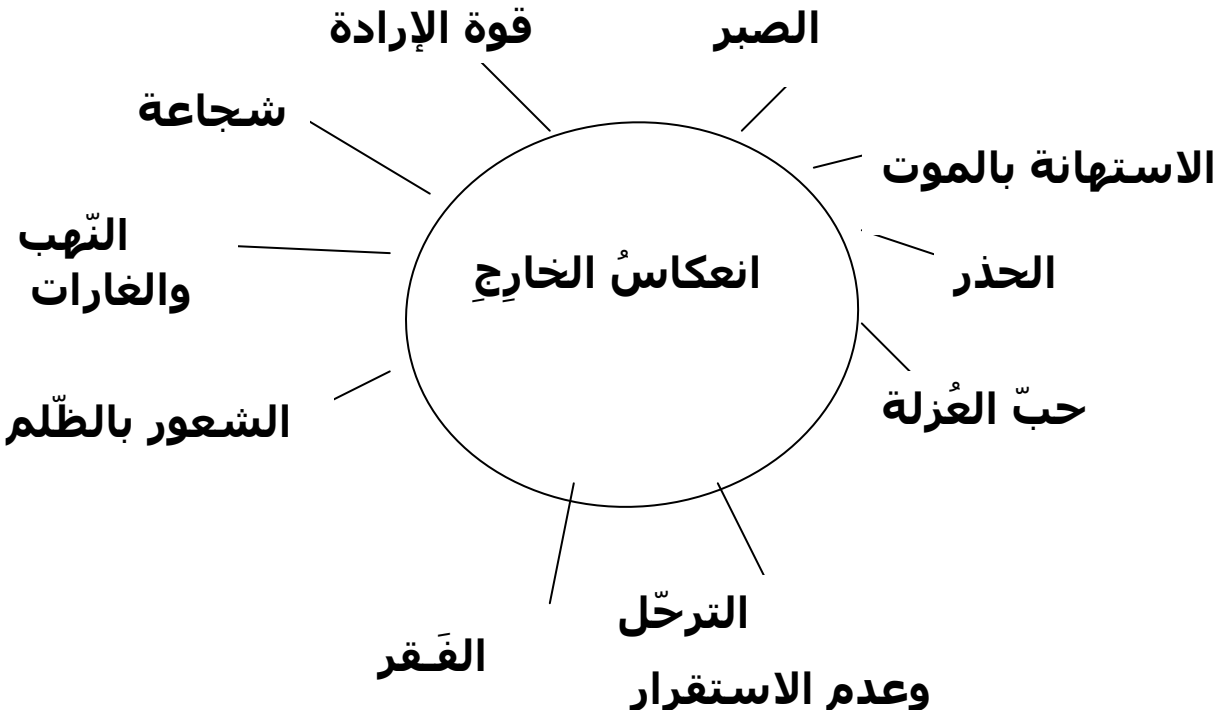

وهذه الدائرة نستطيع أن نجعل محورها الأساسي هو التمرّد، فالتمرّد على المجتمع وعدم قبوله حتمًا هو ما جعل الشاعر يحتّم على نفسه كونه شجاعًا، أو راغِبًا في الانعزال لعدم رضاه عن هذا المجتمع، وإن شعوره بالظّلم المصاحب لفَقره أو عُدمه هو الذي دفعه إلى الترحّل وقَطع الطريق والنّهب والسّلب؛ لتقوم له قائمة فيضمن بذا لقمة العَيش التي قد تضمنُ حياته أو تقيمُ حياة غيره من الجياع والفقراء الذي وقعوا في نفس معاناته لكنهم لا يستطيعون ضربًا في الأرض كما يستطيع ذلك هو.

من هذه الدائرة خرجت لنا شخصيّة الصعلوك التي تمثّل جانبًا إنسانيًّا محضًا في كثيرٍ من محاوره، لم تكن ظاهرةً إلا باستعراض تأثير البيئة عليه، وهذه الجوانب الإنسانية

تتضح في الدائرة الثانية:

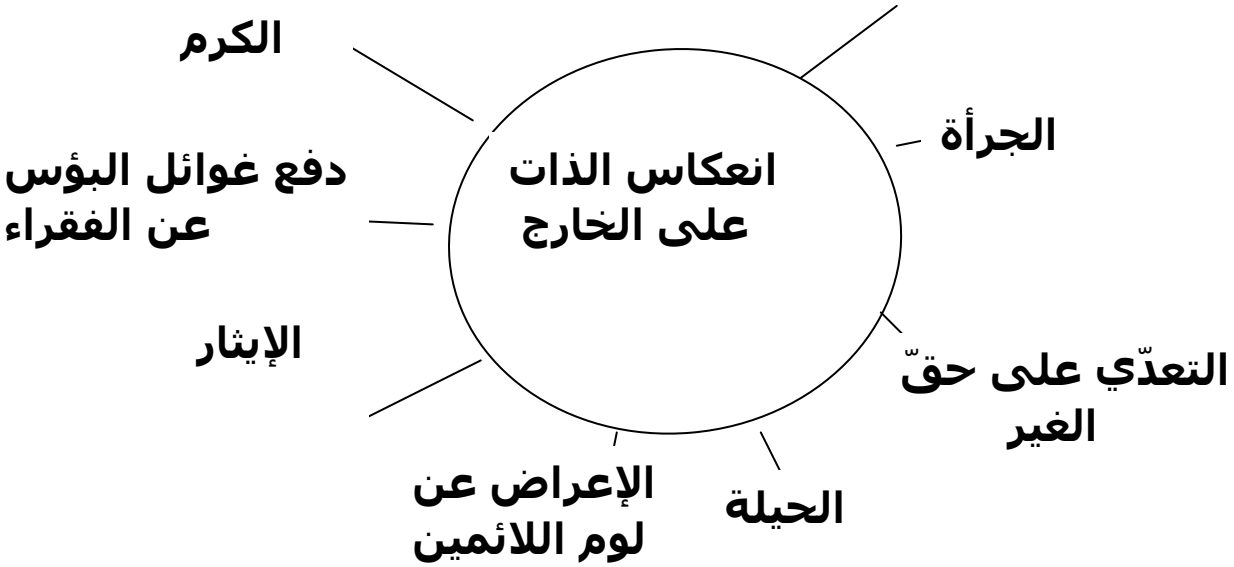

وفي هذه الدائرة تتمثّل ردّة الفعل للدائرة الأولى، فإنّه –أعني الصعلوك- لما وقع تحت سطوة الخارج أو البيئة حوله تشكّل لنا بصورة إنسانٍ آخر بخصائص تلائم الوقوع تحت تلك السّطوة فأصبحت شخصيته ردّة فعلٍ تجاه ما حوله حتى غدا يتغنّى بأفعالٍ يرسم بها أثره على بيئته ومحيطه.

وهنا في هذه الدائرة يتضح كيف وضعت البيئة تأثيرها وسجّلته في شخصيّة الصعلوك الذي سيطر الكرم عليه بفعل ما يراه من عُدمٍ حوله يقابل حياة الموسرين ولو بصورةٍ تمثّل أبسط مراحل اليسار، وبذلك أصبح الصعلوك في كثيرٍ من أحواله يؤثر غيره ممن لا تقوم له قائمة وحدَه، فمن الناس مَن يعيش الفقر ولا يجد لنفسه حلاً يمكّنه من دفع غوائله عنه، ومقابل ذلك تتشكّل تجاه الصعلوك فئاتٌ تلومه على أفعاله، ولكنّه في خلاصة رأيه يرى أنّ هذا هو الحلّ الذي ينبغي أن يُتَّخذ، فهو مقتنع تمامًا أنّ ما يفعله لم يكن بدافعٍ منه أبدًا وإنما هو بدافع البيئة حوله التي جعلت منه إنسانًا يسعى للعَيشِ أو الموت الكريم _بحسب ما يظنّ_ دون التفكير بالطريقة التي تؤدّي إلى ذلك، ودون النظر إلى كيفية الوصول إلى المراد.

ولذلك فإنّ هذا الصعلوك الذي وقع تحت هذا التأثّر والتأثير لم يكن نتاجه الذي يضمّ الجانب الإنساني بوضوح إلا نتيجةً لذلك الكمّ من الدوافع التي دفعته إلى التشكّل بهذه الصورة، ولا أعني هنا أن أسوّغ لمثل هذه الشخصية أو هذا السبيل، ولكن لعلّ في ذلك عذرًا أو داعيًا إلى العذر لمَن يرى أنّ ما يفعله الصعلوك لم يكن مقبولاً بأيّ حالٍ من الأحوال دون النظر إلى مسبّبات السّبب.

المحور السادس : الصَّعلكة (صورةٌ للفضائل الإنسانيَّة):

وفي هذا المبحث أتعرّض لنماذج من قصائد الصعاليك يظهر فيها الجانب الإنساني الذي يختبئ خَلف حياةٍ صعبة يعيشها الصُّعلوك، وعلى أيّة حالٍ فإنّه بِغَضّ النَّظَرِ عن دوافع هذا وذاك فإن نصوصهم تظهر للقارئ حاملةً الفضائل الإنسانيّة التي يسيطر عليها في صعاليك العصر الجاهلي والإسلامي جانب الشجاعة واضِعًا كلّ فضيلةٍ في إطارها بتلك الهيمنة التي تفرضها ضرورة كَونِ الصّعلوك شجاعًا ليقوى على العَيش، وإلى القارئ أقدّم نماذجًا منها بعد استقراء جلّ دواوينهم ونصوصهم:

يقول تأبّط شرًّا[1]:

بل مَن لعذّالةٍ خذّالـةٍ أَشِـبٍ حرَّق باللّومِ جِلدي أيَّ تَحراقِ[2]

يقولُ أهلكتَ مالاً لـو قنِعْتَ به مِـن ثوبِ صِدقٍ ومِن بَزٍّ وأعلاقِ[3]

عـاذِلتي إنّ بعضَ اللومِ معـنَفةٌ وهل مـتاعٌ وإنْ أبْقَيتُه بـــاقِ

وقد نعدّ ذلك الإعراض عن لَوم اللائمين المعارضين من الفضائل لأنّ مَن يلوم الصعاليك كانوا معارضين لأفعالهم لا من حيث التصرّف الصعلوكي أو احتراف الصعلكة، وإنما أقصد مَن يلومهم على ما يقومون به من مساعدة وبذل وغير ذلك، وأكثر ما ورد في قصائدهم هو اللّوم على سعة البذل ومنها هذه الأبيات التي يرى فيها الصعلوك أنّه يمتلك الإجابة على مَن يلومه على سعة بذله وهو أنّ المال كله فانٍ ولن يبقى لصاحبه، فكأنه يقول إنّ ادخاره لن ينفعه شيئًا مقابل أن ينتفع به غيره من ذوي الحاجة.

يقول الشَّنفرى[4]:

فإني لَمولى الصّبر أجتـابُ بَـزّهُ على مِثلِ قَلبِ السِمعِ و الحَزمُ أَفعلُ[5]

وأُعـدِمُ أحيانًا وأغنى و إنـما ينالُ الغِـنى ذو البُعـدةِ المُـتَبَذِّلُ[6]

فيظهر هنا الشنفرى صاحبَ صَبرٍ كأنّما صار وليّه من شدّة ملازمته إياه، ثمّ يوضّح نموذجًا لفضيلةِ القناعة والرّضا بالمقسوم إن كان فقرًا أو غنًى على شدّة ما يجِد من حالٍ مُعدَمة، ثمّ يضع القاعدة القائلة بأنّ القناعة كنزٌ حين يقول بأن الغنيّ الحقيقي هو صاحب الهمّة العالية الذي لا يبالي إن أقفرتْ حاله مادامت همّته تعلو على شعوره بالفقر أو الحاجة.

---

[1] ديوانه، ص43

[2] العذالة: كثير العذل ، الخذالة: كثير الخذل، الأشب: المخلّط المعترض. ويروى البيت بلفظ آخر:
تقولُ أهلكتَ مالاً لو ضننتَ به من ثوبِ عزٍّ ومن بزٍّ وأعلاقِ

[3] البزّ: ثياب المعركة أو السلاح، الأعلاق: جمع علق وهو المال الكريم.

[4] ديوانه. ص62.

[5] مولى الصبر: صاحب الصبر أي وليّه والقائم به، أجتاب: أقطع ولعله هنا بمعنى ألبس، البز: الثوب، السمع: سبع مركب وهو ولد الذئب من الضبع، الحزم: ضبط الرجل أمره و أخذه بالثقة.

[6] أعدم: أفقر، البعدة: اسم للبعد ولعله يريد هنا ذا الهمة أي بعيد الهمة، المتبذل: الذي لا يبالي.

ويقول أبو خراش الهذلي[1] في امرأته التي عزَفَت عنه إلى رجلٍ موسِر:

فـلا وأبيكِ الخيرُ لا تَـجِدينه جميلَ الغِنى ولا صَبورًا على العُدمِ

ولا بَطـلاً إذا الكُـماةُ تزيّنوا لدى غمَراتِ الموتِ بالحالِكِ الفَدمِ

أبَعدَ بلائي ضلَّت البيتَ مِن عمًى تُحِبُّ فراقي أو يحِـلُّ لها شَـتمي

وإنّي لأثوى الجوعَ حتى يملّـني فيذهبُ لم يدنسْ ثيابي ولا جِـرمي

وأغتَبِقُ الماءَ القراحَ فأنتـهي إذا الزادُ أمسى للمزلجِ ذا طَعـمِ

أردّ شـجاعَ البطنِ قد تعلمينه و أوثِرُ غيري من عيالكِ بالطّـعمِ

مخافةَ أن أَحيا برغمٍ و ذلّـةٍ وللموتُ خَيرٌ مِن حياةٍ على رغـمِ

و من هذه الأبيات نستطيع أن نستنتج جوانب إنسانيّة مختلفة تستدعي ذلك الصَّبر الذي ترسمه لنا في شخصية هذا الصعلوك ،فقد يكون كراهةً للضَّيم وعدم قبول الهوان، و قد يكون ذلك إيثارًا منهم، بمعنى أنهم لو وجدوا الطّعام –ولو سرِقةً- فإنهم يؤثِرون إطعام غيرهم وسدّ حاجاتهم عن سدّ جوعهم وحاجة أنفسهم، وقد يدخل ذلك في إطار الكرم كفضيلةٍ تتجسّد في حياته وتغدو نمطًا حياتيًا على الرغم من فقره أو عُدمه في أغلب الأحيان، بل إنّ منهم من يبذل ما عنده ويحثّ غيره على البذل حتى وإن كان ما يبذله هو آخر ما يمتلكه كعمادٍ لقيام حياته؛ ولذلك هو يرى كلّ هذه الفضائل في نفسه بل ويفتخر بها أمام زوجته التي آثرت غيره عليه بإيساره ناسِيةً أو متناسيةً ماعندَ أبي خراش من محامد و فضائل إنسانيّة.

ويقول عمرو بن برّاق[2]:

متى تجمعِ القَلبَ الذكـيَّ وصـارِمًا وأَنْفًا أبِيًّا تجتَنِبْـكَ المظـالِمُ[3]

ومَن يطـلبِ الـمالَ الممنَّع بالقَنا يعِشْ مُثْرِيًا أو تَخترِمْـهُ المَخـارِمُ[4]

إذا جـرَّ مَولانـا علينا جريرةً صَبرْنا لـها إنّا كِرامٌ دعائِـمُ[5]

ونَنصُرُ مَـولانا ونَعلمُ أنـهُ كما النّاسُ مجرومٌ عليهِ وجـارِمُ[6]

ويتَّضح هنا في هذه الأبيات تلك النَّفس الأبية التي يعيشها هذا الصُّعلوك في تجربة الصعلكة، فهو لا يكتفي بذلك الخُلق الذي يعدّه نبيلاً فاضلاً في نفسه، بل ينصح به غيره ويوجّه الخطاب الشعري إلى كلّ فردٍ يقرؤه أو يسمع به فالقلب الذكيّ و السّيف و النفس الأبيّة تجنّب الإنسان الوقوع في المظالم،

---

[1] أحمد كمال زكي، مرجع سابق 179- 180

[2] ديوانه. ص109

[3] الصارم: السيف القاطع، الأبيّ: المترفع عن الدنايا .

[4] القنا: جمع قناة وهي الرمح، مثريا: كثير المال ، تخترمه: تهلكه ، المخارم: جمع المخرم وهو الطريق في الجبل أو الرمل، الماجد: ذو المجد والخلق الحسن.

[5] الجريرة: الذنب أوالجناية، الدعائم: العماد و الزعيم.

[6] مجروم عليه: معتدى عليه ، جارم: معتدٍ.

فهذه الثلاثية التي صنعها الصُّعلوك تعدّ دعاماتٍ ثلاث لحياة النفس التي تأبى الضّيم، كما يضع لنا الشاعر روح الجماعة والانتماء للقائد والزعيم، وقد يتجلى ذلك على الرغم من افتقاد الصعلوك للزعامة الجامعة المانعة (وأقصد الجامعة للرعية والمانعة عن كل شرٍّ قد يقع)، ولكنّ الفضيلة التي يرسمها الصعلوك لازالت جديرةً بالذّكر مِن كراهةٍ للضيم وشجاعةٍ و انتماءٍ و تلمّس العذر لصاحب العذر، كلها معانٍ سامية سجّلتها الأبيات بجزالةِ عبارةٍ و تجربةٍ خالصةٍ واضحة.

ويقول تأبّط شرًّا[1]:

يخَفنَ عليهِ وهو يـنزِعُ نفسهُ لقد كنتُ أبَّاءَ الظُلامـةِ قَسْوَرا[2]

ونرى في هذا البيت كيفَ يصِفُ تأبَّطَ شرًّا نفسه ويمتدحها بشجاعته و بأنّه يأبى الظلم والضَّيم ولاشكّ أنّ حياة الصعاليك تستدعي مثل هذا الشعور وتستثيره داخلهم، وفي نموذجٍ آخر للفضيلة التي تتأتّى في رفعة النّفس التي يتمنى الشاعر معها الموت على الهوان يقول تأبّط شرًّا[3]:

هما خُطَّتا إمّـا إسـارٌ و مِنَّـةٌ وإمّـا دمٌ و القَتلُ بالحُـرِّ أجدرُ[4]

ويقول تأبّط شرًّا[5] أيضًا:

إذا الحَـربُ أَوْلَتْكَ الكَليبَ فولِّها كليبَكَ واعلم أنها سـوفَ تنجلي[6]

وانظر هنا كيفَ يبعث البيتُ على الصّبرِ ومقابلة القوّة بالقوّة، أفلا يُعَدّ مَن يدعو إلى الصّبر والتصبّر و حثّ الغير على ذلك صاحبَ فضيلةٍ تستدعي الوقوف عندها؟!

ومما ورد عن الصّعاليك في العصر العبّاسي أيضًا ما قاله القتال الكلابي[7]:

مِن معشرٍ بقِيَت فيهم مكـارِمُهُم إنّ المكارِمَ في إرثٍ و آثــارِ

لا يتركونَ أخاهم في مـودّأةٍ يُسفى عليه دليكُ الذلِّ والعــارِ[8]

ولا يفِرّون و المَخزاةُ تقـرعُهم حتى يصيبوا بأيدٍ ذاتِ أظفــارِ

فيعترف هذا الصّعلوك بفضل المكارم التي تقضي بعدم تركِ الإخوانِ في حاجةٍ قد يريدونها، كما أنه يشيد بعدم الفرار و الحِرص على النّصر ونيل المراد بهمّةٍ عالية ولو شقّ ذلك عليهم.

---

[1] ديوانه. ص25.
[2] القسور: الأسد.
[3] ديوانه. ص31.
[4] خطتان: أمران أو قضيتان ، المنة: إطلاق السراح أو العفو.
[5] ديوانه. ص67.
[6] الكليب: بمعنى المكالب أي الجريء ، تنجلي: تزول وتنقشع.
[7] يوسف خليف، مرجع سابق. ص 62-63
[8] المودأة، الشدة ، الدليك: التراب الذي تسفيه الريح.

ويخشى أبو الشَّمقمق أن يُعاب عليه إغلاقه بابَ بيته وبالتالي نستنتج لمحةً في نفسِ هذا الصُّعلوك من الاعترافِ بفضيلةِ الكَرمِ عرَضًا، لكنه يريد من شِعره أن يصوّرَ فَقرَه الذي ماانفكّ صعاليكُ العصر العباسي مِن ذِكرِهِ و كثرة الحديثِ عنه يقولُ في ذلك أبياتًا طريفة[1]:

ليسَ إغـلاقي لِبابي أنَّ لـي فيهِ ما أخشى عليه السّرقـا

إنّما أغلِقـه كَي لا يـرى سوءَ حالي مَن يجوبُ الطّـرقا

منزلٌ أوطَنـهُ الفقرُ فـلو دخلَ السَّارقُ فـيهِ سُرِقا

لاتـراني كاذِبًا في وصفـهِ لو تراهُ قُلتَ لي قدْ صَدَقـا

ويورِدُ كذلك أبو الشَّمقمق أبياتًا جميلة في فضيلةٍ تقضي بضرورةِ الإخلاصِ والحرصِ على المنشأ الطيّبِ والكَسْبِ الحلال ،ونستطيعُ هنا أن نلمحَ الفَرْقَ بين صَعاليك هذا العصر والصَّعاليك الجاهليين) فإنه لا يقبل المالَ يدفعه في وجهٍ حسَن إنْ كان أصله دنِسًا، وبالتَّالي كأنه يقرّر ضرورة التكسّب حلالاً لتكون قاعدةُ كلّ خَيرٍ خيرًا:

إذا حجَجْتَ بمالٍ أصـلهُ دنِسٌ فما حجَجْتَ ولكنْ حجّتِ العِـيرُ

لا يقبـلُ اللهُ إلا كلّ طيّـبةٍ ما كلُّ مَن حجَّ بيتَ اللهِ مَبـرورُ[2]

وعليه فلا يستطيع القارئ أن ينكر عليهم الفضائل والجوانب الإنسانية التي نثرتها نصوصهم لنا والتي تعكس تجاربهم الحياتية، وتعبّر عما في نفوسهم لتلامس بذلك وجدان القارئ الذي يشارك الصعلوك تلك القيم والعواطف المعبّرة عن الإنسان وتأملاته في الحياة والوجود.

[1] المرجع السابق. ص89.
[2] المرجع السابق. ص115.

الخاتمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحابته الكرام وسلم تسليمًا كثيرًا ، ثم أما بعد

فقد انتهيت بفضل الله تعالى من هذه التطوافة حول الصعاليك وشعرهم ؛ للكشف عن الجانب الإنساني داخل شعر الصعاليك ، وقد توصلت الدراسة إلى عدد كبير من النتائج ، جاء من أهمها :

1- إنّ طائفةَ الصعاليك التي ظهرت في المجتمعاتِ على اختلافِها كانت صاحبةَ رسالةٍ وهدف .
2- يُعد (التفاوت الفئويّ) هو أبرزُ الأسبابِ الدَّافعةِ إلى التّصعلُك، وهذا هو المحكّ في جُلّ العصور التي أفرزَتْ الصَّعلكة.
3- جماعة الصعاليك تضم ثلاث فئات منهم الخلعاء الذين خلَعَتهم قبائلُهم لكثرة جرائرهم، ومنهم أبناء الحبشيّات السّود ممّن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوا بهم؛ لِعارِ ولادتهم ، ومنهم من احترف الصّعلكةَ احترافًا.
4- تطّور مفهوم الصّعلكة عبر العصور ولكنّ محوره الأساس و ركيزته الأولى كانت تتمثّل في رسالة التمرّد وعدم الرّضا.
5- يُعد التمرد من أهم الأسباب الدَّافعةِ إلى التّصعلُك، فالتصعلك بمفهومه العام تمردًا على المجتمع .

وختامًا ، وبعد هذه النتائج التي ذكرتها، أوصي الزملاء من الباحثين المتخصصين في مجال الدراسات الأدبية والنقدية العمل على دراسة شعر الصعاليك من جوانب مختلفة فهو لا يزال خصبًا للعديد من الدراسات ، لما تميز به هؤلاء الشعراء من سمات فنية ودفقة شعورية متفردة، تستحق الدراسة والبحث .

المصادر والمراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ.

- ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق: الدكتور عمر الطبّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1997/1418م.

- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط4، 1422هـ/2002م.

- أحمد كمال زكي، شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969/1389م.

- حسني عبدالجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م.

- حسين عطوان،الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول،دار الجيل،بيروت،ط4، 1997م.

- ديوان تأبّط شَرًّا، دار المعرفة، بيروت.

- ديوان الشنفرى ويليه ديوان السّليك بن السلكة وعمرو بن برّاق، دار صادر، بيروت.

- ديوان عروة ابن الورد، دار صادر، بيروت.

- شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط8.

- عبدالحليم حنفي، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م، القاهرة، ط1، 1421هـ-2001م.

- القاموس المحيط، الفيروزآبادي،دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط2، 1424هـ-2003م.

- مجدي كامل،أحلى قصائد الصعاليك،دار الكتاب العربي، القاهرة،ط1، 1415هـ/1994م.

- محمد رضا مروّة ، الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم و أشعارهم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ/1990م.

- محمد رضوان، الصعلوك الساخر وشعره المجهول، دار الكتاب العربي، القاهرة.

- محمد قطب، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، دار الوطن للنشر، الرياض، ط1، 1411هـ/1991م.

- المعجم الوسيط، المكتبة الإسلاميَّة، تركيا، الطبعة الثانية.

- يوسف خليف،الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مكتبة غريب.

الدوريات:

- جذور (فصليّة تعنى بالتراث وقضاياه) العدد السادس عشر، محرم 1425هـ، مقالة بعنوان: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، جاسم محمد صالح الدليمي.